ثنائية البقاء والفناء في شعر جهاد أبوحشيش*

ديوان "ما غاب من جسد السيدة" أنموذجًا

د. أحمد الزعبي/ الأردن

لا يستطيع القارئ استكشاف سيميائيات النص الشعري وترميزاته وإحالاته لدى الشاعر جهاد أبوحشيش إلّا إذا أدرك مأساة متاهات الإنسان المعاصر الفكرية والنفسية (والتكنو-همجية) التي تتقاذفه كأمواج عاتية فلا يعرف إلى أين يمضي، ولا ماذا يريد، ولا لماذا هذا التيه والضباب الذي يُعميه ويحاصره من كل اتجاه؛ ذلك لأنَّ الشاعر ينطلق من رؤية فكرية ذات بعد فلسفي ووجودي تُفتّت أبعاد هذه المتاهة، وترصد جنون هذا العصر قبل أن يهوي إنسان اليوم ويسقط في دائرة الفناء والعدم الذي يلوح له من قريب.

الإشارة السابقة مهمة للدخول إلى عالم جهاد الشعري -كما سنرى في أثناء التحليل الفني والموضوعي لبعض قصائده- وبخاصة في مسألة (البقاء والفناء) أو الصراع الأبدي لدى الإنسان بين الحياة والموت، الحب والحقد، العدل والظلم، المعنى واللامعنى... وبالتالي مواجهة انكساراته وانهياراته التي تفرضها تلك المتاهات والتي تجعل أحلامه في مهب ريح عاتية ودائمة، وآماله كسراب خادع يطارده دون وصول.

ثنائيات البقاء والفناء

- ثنائيّة الوجود والعدم

تنطوي أشعار جهاد أبوحشيش على تساؤلات فلسفية تتعلّق بالوجود والزمان والمصير؛ تلك الأسئلة التي شغلت المثقفين والمفكرين في كل زمان ومكان. فهو مهموم بقضايا عصره وانهياراته وسقطاته التي شوّهت القيم الجميلة والأحلام والأمنيات التي يطمح الإنسان إلى تحقيقها. ففي قصيدة (صورة أولى للرجل الذي لا يشبه الكلام) يداهم الشاعر الحس العدمي أو العبثي

الذي يفضي إلى الفناء والتلاشي من أول كلمة في القصيدة، يقول:

عاقرٌ
مثل ريح حزينة
تَجردُ الضحكات عن شفة الطريق
عاقر مثل الحريق
لا أصابع في أصابعك الطويلة
لا عيون في عيونك
والطريق
قصةٌ أخرى وتأكلها المدينة[1].

فالعاقر لا امتداد له، والاحتراق ينتهي إلى العدم، وهذا هو الفناء الذي يتهدد الإنسان المعاصر، والذي صنعه بنفسه ولنفسه، كما يرى الشاعر. فالذي اخترع الطائرة لم يكن في ذهنه قصف آلاف البشر وقتلهم، وإنما تخفيف معاناتهم وحفظ وقتهم عند السفر، والأغرب من هذا أنه قُتل بإحدى الغارات، وكان يردِّد: (والله... ما اخترعتك لهذا... تبًا لكم...)، وهذا ما يرمز إليه الشاعر حين حوّلنا بأيدينا البقاء والحياة إلى فناء وعدم، وحين حوّلنا الخصب إلى عقم، والنور إلى نار حارقة ومحرقة.

ويتعمّق الشاعر أكثر في حالة المسخ التي حصر الإنسان المعاصر نفسه فيها (وكأنه يستعيد -مسخ- كافكا)[2]، حين يقول: وبعد العقم والحرق والرماد يغدو المرء بلا حواس... لا البصر موجود ولا اللمس... ولا الإحساس... (ولا طريق في الطريق)... وهي قمة المتاهة التي قذف إليها إنسان اليوم الممسوخ نفسه.

- ثنائيّة الحب والحقد

ما يلفت الانتباه في شعر جهاد أبوحشيش أنَّ تأملاته الفكرية تفوق إشاراته الاجتماعية والعاطفية والسياسية في أغلب قصائده، وإن بدت في ظاهرها ومفرداتها وصورها كذلك، فحتى القصيدة العاطفية، فإنها عن الحب والعاطفة ظاهريًّا أو تصريحًا ولكنَّها عن فلسفة العلاقات الإنسانية إيحاء أو تلميح... بمعنى، أنَّ الدلالات البعيدة تتعمق في العلاقة الأزلية بين

آدم وحواء، وصولًا إلى علاقة الرجل بالمرأة في هذا العصر المضطرب المتقلّب، ويتضح هذا في قصيدته (يدك)، التي يقول فيها:

سأتعثر عامدًا بميدان التحرير
وسأضرم النار في أي شيء
قد يمر قرب المتنزه العام
سأرمي الحجارة خلف المواكب
أتمدَّد في الشارع العام
أعلق يافطة فوق صدري
وأكتب " أحب بلادي"
ثم أحرق اليافطة
لتنتبهي
أن كل ما أردته من الطريق
هو أن أمسك يدك
ونسير مرتبكين بالضحك[3].

حيث علاقة الحب هذه تقوم على الخراب والنفاق والإحراق (الفناء)، لا على البناء والصدق والنور (البقاء)، الذي هو أساس العلاقة النبيلة الجميلة... فقد حوّل الإنسان اليوم القيم الجميلة الراقية إلى علاقات عدائية انتهازية مزيفة، فالعاشق يعترف للفتاة (أنه أحرق وخرّب وقذف الحجارة في المظاهرات ليس بدافع وطني... وإنما: وصولًا إليكِ... حتى ألمس يدكِ)، فأيّ حضيض انزلق إليه الإنسان في هذا العصر؟ وأيّ مسخ ارتضاه لنفسه ولمحبوبته حين يستبدل حالة الفرح والبقاء بكارثة الكذب والفناء؟ هكذا يتساءل الشاعر بغضب واستنكار.

- ثنائيّة الحرب والسلام

يمضي الشاعر في رصد ثنائيات البقاء والفناء في أشكال عديدة من صراعات البشر، وكأنه يقدّم رثائيات محزنة ومخجلة لهذا الزمان وأهله في صراعاتهم واقتتالهم، وتبنّيهم شعار (أنا والخراب بعدي...أو أنا والطوفان بعدي). فبعد العقم والمسخ والعاطفة المزيفة، يرصد الشاعر ثيمة (السلام) بين البشر، تلك (النغمة) التي يرددها ويتبجّح بها (كل أفّاك وأفّاق أثيم)، فبعد قتل عشرات الآلاف من البشر، وتشريد الملايين، يخرج القتلة والسفّاحون وينادون بعقد مؤتمر للسلام، ويتباكون على الضحايا والمشرّدين... فيقول في قصيدة (سلام):

سلامٌ علينا..
لأنَّ النهارَ يجيءُ
ويحتلُّ أقدامَنا كي نراه
سلامٌ عليكم.. سلامٌ.. سلام
لأنَّ النيامَ يظلُّون دومًا
سريرَ الغزاة...[4].

فالدلالات والإشارات التي تتضمّنها هذه القصيدة لا تُكتشف بسهولة أو من القراءة الأولى (وبالمناسبة، فإن أغلب قصائد جهاد أبوحشيش تحتاج إلى قراءة متأنية لكشف مدلولاتها البعيدة. وهذا هو أسلوبه طبقًا للمصطلح النقدي الشائع: أن الرجل هو الأسلوب)، فقصيدة (سلام) ومثلها كثير في شعر جهاد نمرّ عليها ونقول: الفكرة جميلة والصورة معبّرة... ونمضي،

ولكن (بالحفر) والبحث بعمق وتأنّ عمّا وراء هذه الأبيات، فإننا نكتشف سيميائيًا ورمزيًا أنَّ الشاعر يُقدّم لنا صورة عن هذا العالم الذي لا يختلف في شريعته عن (شريعة الغاب)، فالقوي يفترس الضعيف، والرصاصة تودي بالكلمة، والقاتل فاجر في تباكيه على (السلم العالمي المستباح)... إذْ هو أول مَن أباحه واستباحه.

وبالحفر أكثر في ما وراء القصيدة... أو (النبش) أوسع في إحالاتها، فإن الشاعر لا يدين القاتل فقط، وإنما يدين القتيل أيضًا (حتى لو كان مظلوما)، فهو الذي يشجّع المجرم على تنفيذ جريمته، وهو الذي (ينام) وعدوّه متربص به... (سلام... سلام... لأن النيام... يظلّون دومًا سرير الغزاة...)؛ فأمّة نائمة غافلة مغيّبة مطمع لكل

غازٍ ومعتدٍ. ولا يقبل الشاعر حجّة أنَّ العدو قويّ ولا طاقة لنا بدحره، فهذا عبث وخواء واستسلام (ومن يقرأ التاريخ يدرك ذلك)، فإذا كنتَ في كل الأحوال مهزومًا أو ميتًا أو فانيًا، فليكن ذلك بنبل وعزّة (وثمن)، لا بالمجان... وإن أردتَ أن تعرف كيف يكون ذلك، فتعلّم من الطفل الذي أيقظ النيام (الذين هم سبب البلاء في هذه الأمة، كما يقول نجيب محفوظ)... تعلّم من الطفل الذي هزم (الجنرال) المغتصب المعتدي، يقول الشاعر في قصيدة (الجنرال والطفل):

الجنرالُ كعادتِهِ
لم يتركْ طفلَ السيدةِ يمُرّ..
طفلُ السيدةِ على غيرِ عادتِهِ
لم يتركِ الجنرالَ يُنهِي طعامَهُ..
كانَ يحاولُ أنْ يعلِّمَ عصفُورَ قلبِهِ الطَّيران
في الساحةِ الواسعة..
السيدةُ سقطَتْ قُبيْلَ صوتِ الرَّصاصَةِ
لترى طفلَها كعادتِهِ
يطيرُ عصفورُ قلبِهِ[5].

فالطفل (والسيدة/ الأم تراقبه وتعرف مصيره) يعلم أنه لا قبل له بالجنرال، وأنه ميت... ميت... ولكنه لن يتركه يهنأ (بطعامه) أو عدوانه أو احتلاله... فيطلق رصاصته أو خنجره في قلب المعتدي قبل أن يتلقى قلبه رصاص المجرمين والمحتلين... فتعلّم من هذا الطفل إن كنتَ جادًا في دحر المعتدي، يصرخ الشاعر، ولا تترك (سريرك) فراشا للغزاة والطغاة.

- ثنائيّة الحياة والموت

صراع مظاهر الحياة ومظاهر الموت صراع أبدي مستمر، تنتصر الحياة وينكسر الموت حينًا، وتنكسر الحياة وينتصر الموت حينًا آخر... غير أنَّ الحياة في النهاية منتصرة دائمًا، فالبشرية في ازدياد بالملايين في كل يوم، على الرّغم من رحيل الملايين أيضًا.

في قصيدة (الكتابة) يرصد الشاعر صورًا من هذه الحرب الضروس بين الحياة والموت، بين الجسد والروح، وبين العدل والظلم، لكي يعلي من شأن الحياة والأحياء حين يكون الموت تضحية وثمنًا لسموّ الروح وإحقاق الحق والدفاع عن العدالة، يقول:

الكتابة:
فنٌّ ارتجالِ الموتِ في الطرقات..
دمعةُ أمٍّ
إذْ تهاوى الصغيرُ إلى ظلِّه
ليكتملَ البحرُ في طلقتين..
نافذةٌ لم تخصصْها الأمهاتُ لدمعٍ حبيسْ..
بلادٌ
راحتْ تفتشُ عن فسحةٍ للحياة
فارتجلت دمَها...[6].

الموت والرصاص هنا يُدفع ثمنًا للحياة، فالأم والطفل وآخرون (يرتجلون دماءهم) ويضحون بأنفسهم لمنح بلادهم وأوطانهم (فسحة للحياة)، كما يرى الشاعر، الذي يدرك أنّ تحرير الشعوب والأوطان من أيام الاستعمار والاحتلال حتى يومنا هذا لا يتحقق إلّا بمثل هذه التضحيات التي يكون الموت فيها استردادًا للحياة واستعادة للحرية.

أما الصورة الأخرى للحرب بين الخصمين الأبديين: الحياة والموت، فتتجلّى في قصيدة (الموت) التي أرادها الشاعر حوارًا رمزيًا بين الرصاصة والقلب أو (الموت والحياة) لتنتصر الحياة على الموت بالموت، يقول:

الموت
ليس أن يمرَّ القلبُ
إلى طلقةٍ في جوارِ الرصيف
بلا صاحبٍ
أو أن يهلّلَ طفلٌ، قبيلَ الصلاة،
بسكينةٍ
نحو بابِ الحياة.
الموت
أن تمرَّ بصاحبِ الدربِ
حاملًا ما انطفأ
ليقرأ ما لم تقلْه
فلا يعرفُك[7].

إذ يقلب الشاعر طبيعة الأشياء، فالطبيعي أن تنتهي الحياة بالموت، لكن الشاعر يعكس ذلك ويجعل الموت يُفضي إلى حياة حين يكون دفاعًا عن الحق أو الوطن أو المبدأ النبيل... (فالطفل يهلّل نحو الحياة) من خلال الموت والتضحية والإقدام على طعن العدو الغازي... وكأنه ذاهب إلى الحياة عن طريق الموت.

- ثنائيّة الانفصام (الأنا والأنا الآخر)

وهي أكثر الثنائيات تعقيدًا واضطرابًا في الشخص الواحد، حيث يكون الإنسان فريسة لانفصام بينه وبين نفسه، أو كما يُعرف بالشيزوفرينيا (schizophrenia) في علم النفس. ويرصد الشاعر هذه الكارثة التي تفشّت في سلوك الإنسان المعاصر وأفقدته التوازن النفسي والعقلي في كثير من أقواله وأفعاله، وبخاصة في أمّتنا ومجتمعاتنا المغيّبة الممزقة كما نراها اليوم، فيُحدث هذا الانفصام حوارًا متناقضًا بين الذات والذات أو بين الأنا والأنا الآخر في الشخص نفسه.

ويُجسّد الشاعر أبوحشيش هذه الظاهرة أو الأزمة التي اجتاحت ذهن الإنسان المعاصر في قصيدة (سواي)، حين يقول:

وحدي
أهزُّ الريحَ
كي أمضي إليَّ..
الوقتُ فاكهةُ الطغاة
وأنا تشاكسُني يديّ
تردّني
عن قبلتي
لأشمَّني
فأرى سواي[8].

(فأنا سواي) يقول الشاعر، وكأنه شخص آخر يحاوره و(يشاكسه)... فهو في رحلة بحث مضنية عن نفسه... وحين يصل إليها يكتشف أنه وصل إلى نفس أخرى (إلى سواه).

ومثل هذه القصائد في ديوان الشاعر هي التي نقصدها حين نقول: إنَّ كثيرًا من أشعار أبوحشيش تحتاج إلى قراءة متأنية تأملية لكشف خفاياها الكامنة وراء المفردات والصور الشعرية الظاهرة. فحالة الانفصام لدى الإنسان المعاصر كما تصوغها وتُجسّدها هذه القصيدة القصيرة، حالة مدمرة للفرد والمجتمع، فإذا كان المصاب فردًا، فإنه يُدمّر نفسه ومَن حوله، وإذا كان (طاغية) فإنه يُدمّر بلادًا ومجتمعات بأكملها (والدول التي دُمّرت... والشعوب التي شُرّدت في هذا الزمان ليست بعيدة ولا تحتاج إلى دليل).

يُفضي هذا الانفصام إلى تمزّق الذهن والوعي، فالمصاب يريد الشيء وضدّه في وقت واحد... يريد أن يفعل ولا يفعل، أن يبكي وأن يضحك، أن يحيي ويُميت، أن... وأن... كل هذه المتناقضات والمتضادات يؤيدها وينكرها في الوقت ذاته... فأي عالم نحن ننشده؟ وأيّ جنون نحن نطارده؟ وأيّ فناء نهوي إليه؟ يتساءل الشاعر بتألّم وتحسّر... بمراثيه الحزينة للإنسان المعاصر ■

الهوامش

*جهاد أبوحشيش، ديوان (ما غاب من جسد السيدة)، دار فضاءات للنشر، عمّان، الأردن، 2015.

(1) قصيدة غير منشورة للشاعر جهاد أبو حشيش.

(2) انظر: فرانز كافكا في (المسخ Metamorphisos).

(3) الديوان، ص193.

(4) الديوان، ص181.

(5) الديوان، ص193.

(6) الديوان، ص196.

(7) الديوان، ص197.

(8) الديوان، ص165.